

الأفعال الكلامية وأبعادها التداولية في ضوء العملية التواصلية

د. سعاد بسناسي

جامعة وهران - الجزائر

تقوم العملية التواصلية على اللغة، وتشكل اللغة من أفعال خطابية، قد تكون حكما أو سؤالا أو تفسيراً أو أمراً أو تحذيراً أو طلباً أو وعداً، وقد ينتج عنها احتمالات أخرى، مع ما تحمله دلالاتها من صدق أو كذب؛ وانطلاقاً من هذا، فالأفعال الكلامية أنواع بمراعاة قوة تأثيرها ودرجاتها والآثار المترتبة عنها، كون هذه الأفعال هي ذات علاقة وطيدة بالنتائج الإضافية، التي تتخطى الاتصال اللغوي، وتتجاوزهُ إلى التأثير من خلال ما تحمله من أبعاد تداولية، ومضامين حجاجية.

إنّ علم اللسانيات يهتم باللغة، هذه الأخيرة بدورها تؤدي جملة من الوظائف التواصلية؛ لذلك تهتم اللغة بطرائق التواصل، وأهمّ العناصر التي تقوم عليها العملية التواصلية، التي تبدأ بالمرسل المتكلم وصولاً إلى المستقبل المستمع، وما بينهما من رسالة صوتية وقناة ناقلة؛ لذلك يعدّ الحجاج أحد أهمّ إشكالات المباحث التداولية "والقول والفعل يندرجان ضمن شروط تحقق العملية التواصلية، وحتى نؤثر بأقوالنا وأفعالنا، ينبغي توافر عناصر تأثيرية فكرية، ونطقية، وسمعية وثقافية ونفسية"¹ فالحجاج عمل حوارى، يهدف إلى استمالة المتلقي والتأثير فيه، وهذا أحد أهمّ أهداف الدرس الأسلوبى الحديث.

والحديث عن العملية التواصلية، يفرض الحديث عن البلاغة الجديدة؛ لأنّ أرسطو جعلها توجّه إلى جميع أنواع السامعين، كونها تحتضن ما يسمّيه القدامى بفنّ الجدل، المتمثّل في طريقة النقاش والحوار عبر الأسئلة والأجوبة، التي تهتمّ خاصة بالمسائل الظنيّة، وقد تنبّه إلى أنّ هناك ضرورة منطقية تربط المبادئ أو المقدمات بالنتائج؛ فترغم السامع حين اعترافه بمقدمات معينة على قبول النتيجة. وإذا صحّ أنّ اللغة هي مادة الحجاج، صحّ معها أنّ الفكر هو الآلة التي تقوم بتحديد المبادئ

والقواعد داخل أنساق تصوّريّة، تعبّر عن العلاقات التي تنتظم تلك المبادئ والقواعد، كما نجدها في تحليل الخطاب العادي للمتكلّمين.

هكذا أيّا كانت الآراء التي تصاغ بالّلغة؛ فإنّها جميعاً تخضع لقوانين الفكر نفسها، ولبادئ المنطق نفسها. وكما تستخدم اللّغة للتعبير عن الآراء المختلفة، تستخدم هي أيضاً قوانين الفكر والمنطق نفسها² ومنه فإنّ مستخدمي اللّغة، يوظّفون عدّة آليات منطقيّة وغير منطقيّة في استخدام الكلام، وفهمه، وتحويله، وتحليله؛ بل وحتى تأويله، ولولا هذه الآليات لما تحقّق بينهم تواصل لسانی.

وكلّما أفلح الفرد في اختيار ما يناسب من هذه الآليات كان لخطابه وقع على مخاطبيه: استمالة أو إقناعاً أو إمتاعاً... إذ تعمل جميعها إذا أحسن استعمالها على تسريع عمليّة تعديل موقف، أو تغيير سلوك، أو الدّفع إلى عمل، أو تغيير نظرة اتجاه موضوع، أو حدث، أو شخص، أو فكرة³ وفي كلّ ردود الفعل هذه، تعبير عن مواقف وقرارات وقناعات تخصّ صاحبها، وبذلك نستخلص أهميّة الأفعال الصّادرة عن أصحابها، وتأثيرهم من خلالها، ونظراً لهذه الأهميّة قامت نظريّة الفعل، لما تهدف إلى تحقيقه من أهداف وأغراض تواصلية.

نظريّة الفعل ومراميها التواصلية: تعتبر نظريّة أفعال الكلام العامّة لجون لانجشو أوستين (JOHN LANGSHAW AUSTIN) محاولة جادّة لتجاوزها الطّرح الأرسطي في كتابه الخطابة، كما أنّه أسهم في تجديد فلسفة اللّغة؛ إذ حاول استقصاء المصادر والأصول النّظريّة التي هيمنت على كتابه "نظريّة أفعال الكلام العامّة"⁴ والمتتبّع لأفكار أوستين ومصادرها وتكوينه الفلسفي العميق، يجده قد انتفع بترجمته كتاب أسس الحساب لجوتلوب فريجة. وأثر النّسقيّة الرّياضيّة في بناء كتابه واضح، إضافة إلى النزعة الوضعيّة المنطقيّة في إنجلترا؛ ولكنّه لم يدخل في صراع مع هذا التيار، بل فضّل متابعة التفكير اللّسانيّ وبخاصّة مع علماء لسانين انطروبولوجين، مثل: "بواس"، و"ساير" و"ورف". وقد كانت أعمالهم توصّلت إلى تحديد أثر اللّغة على بنية الشّعوب البدائيّة. وأنّ بنية اللّغة وبنية الفكر شيء واحد، ومن ثمّ فاللّغة ليست أداة ووسيلة للتّخاطب والتّفاهم والتّواصل وحسب؛ وإنّما هي وسيلة للتأثير في العالم، وتغيير السلوك الإنسانيّ من خلال مواقف كليّة.

واللغة انطلاقاً مما سبق ذكره هي مجموع أفعال الخطاب، التي تكون ما يسمّى بنظرية التواصل، ومن كلّ مظاهر السلوك البشريّ النظريّ والعمليّ؛ وتشكّل مجموع أفعال الخطاب، بدورها مجالا تحتياً لنظرية الفعل التي لا تخرج في غالب الأحيان عن ثلاثة مرامي:

- 1- يعدّ فعل التواصل تحويلاً وتعديلاً في الآن نفسه لعلاقة المتكلّم بالسّامع.
- 2- لا توجد وسيلة للكلام عن المعنى دون الكلام في نفس الوقت عن الهدف.
- 3- كلّ فعل تواصليّ ينتج آثاراً مختلفة بمجرد وجود تعبير كتابيّ أو شفويّ⁵ فكلّ فعل تواصليّ يفرض وجود خطاب قائم على متكلّم ومستمع، تكون بينهما عملية تأثيريّة وإقناعيّة؛ وتبرز بذلك الوظيفة الحجاجيّة، ممّا ينسجم مع المقولة التي ترى أنّ اللغة تحمل بصفة ذاتيّة وجوهريّة وظيفة حجاجيّة. ويعتبر الفعل أحد أهمّ المفاهيم الرئيّسة التي تقوم عليها التّداوليّة؛ لأنّ اللغة ليست مجرد وصف للعالم، ونسخ للواقع حسب؛ بل هي القيام بأفعال وممارستها قصد التأثير، وكان هذا منطلق "جون أوستين" في تأسيسه لنظريّته في أفعال الكلام، وأجمل أفكاره في كتابه "QUAND DIRE C'EST FAIRE" من فكرة استوحاها من المثل الذي يرّده الإنجليز (كيف نصنع الأشياء بالكلمات) والتي هي صدق ثقافيّ لمقولة شعبيّة (كيف بنى مسكناً بأنفسنا) فبواسطة القول ننجز فعل الكلام ACTE ILLOCUTIONNAIRE⁶ فأفعال الكلام تتنوّع أشكالها وتأثيراتها الإقناعيّة، بحسب طرائق استعمالها؛ لأنّ فعل القول يعمل على تغيير الآراء، والأفكار، والمشاعر، والعواطف، ومختلف الحالات الإنسانيّة؛ بل ويؤدّي إلى تغيير المواقف، وتبديل القرارات. فالفعل التواصليّ، يهدف إلى إثارة المتلقّي، أو إقناعه، أو التأثير فيه، وكلّ ذلك من خلال بنيات تواصليّة تميّزيّة.
- والقول في البنية التواصليّة، ينبغي أن يقترن بالفعل، وإلاّ فلا أهميّة له ولا تأثير له؛ لأنّ التّخاطب يقتضي اشتراك جانبيين عاقلين في إلقاء الأقوال وإتيان الأفعال، ممّا يلزم ربط هذه الأقوال بقواعد تحدّد وجوه فائدتها الإخباريّة أو التواصليّة، تسمّى بقاعدة التّبلغ ممّا يدلّ على تحقّق عملية تواصليّة إنسانيّة، كما ينبغي أن تضبط هذه الأفعال قواعد تحدّد وجوه استقامتها الأخلاقيّة أو التّعامليّة، والتي تسمّى بقواعد التّهديب. وهو يدلّ على التّعامل الأخلاقيّ بين المتخاطبين⁷ وقد أشار طه عبد الرحمن إلى مبادئ العمليّة التّخاطبيّة، التي تعتبر بنية تفاعليّة تقوم على ضربين: مبادئ

تواصلية وأخرى تعاملية، وهي خمسة مبادئ: مبدأ التعاون، والتأدب، والتّواجه، والتأدب الأقصى، والتّصديق، وهذه "المبادئ تتفاضل فيما بينها تفاضلاً، فمبدأ التأدب يفضل مبدأ التعاون بتفعيده للجانب التهذيبي، ومبدأ التّواجه يفضل مبدأ التأدب بتعرّضه لعنصر العمل من الجانب التهذيبي، ومبدأ التّواجه لوقوفه على وظيفة التّقرّب من الغير التي يؤدّيها العمل، ومبدأ التّصديق يفضل مبدأ التّصديق الأقصى، لأنّه يقوم بشرطي التّقرّب من الغير، وهما الصدق والإخلاص"⁸ ومنه يتضح أنّ العملية التواصلية درجات ومستويات، تتفاوت بحسب تفاوت عمر، وثقافة، ومستوى، وانتماء طرفي العملية التواصلية، وبحسب الموضوع والهدف المقصود من وراء التّخاطب الحاصل في شكل رسالة تبليغية، الذي يقوم بدوره على جملة من القواعد.

القواعد التواصلية في العملية التّخاطبية: لقد ذكرت اللسانيات الحديثة بعامة، و"بول غرايس" بخاصّة مبدأ التعاون، الذي يوجب أن يتعاون المرسل والمستقبل من أجل تحقيق الهدف المرسوم من الحديث الذي دخلا فيه، وقسم هذه القواعد إلى أربعة أقسام، وهي: الكم، والكيف، والإضافة أو العلاقة والجهة، وكلّها لها تأثيرها على البنية الحجاجية.

- قاعدة الكم: ينبغي أن يقدّم المخاطب للمتلقّي قدراً كافياً من المعلومات والأفكار؛ لتحقيق الهدف والإفادة المتبادلة بين طرفي العملية التواصلية،

- قاعدة الكيف: وهي قول المتكلّم الصدق، وكلّ ما يستطيع إثباته أو نفيه بأدلة وحجج معقولة.

- قاعدة الإضافة أو العلاقة: مراعاة المناسبة في الكلام،

- قاعدة الجهة: تجنّب الغموض والحشو والإطناب والاضطراب.⁹

وقد تمّ اقتراح جملة من المستويات والشروط التي ينبغي مراعاتها في بنية الفعل اللّغوي أثناء العملية التواصلية، ومستوياته ثلاثة هي: مستويات الفعل الكلامي، ومستويات الفعل التّكليمي، ومستويات الفعل التّكليمي.

مستويات الفعل الكلامي: إنّ الفعل الكلامي هو فعل التّلفّظ بصيغة ذات صوت محدّد،

وتركيب مخصوص، ودلالة معيّنة، واقترح عبد الرحمن طه مقابله الأجنبي: (L'acte locutoire)

وترجمه بفعل النّطق؛ أمّا الفعل التّكليمي فالمقصود به هو فعل التّواصل المتحقّق في سياق معيّن،

كالوعد القريب في قول القائل: (سأعود إلى القدس) والوعد البعيد (سوف أعود إلى القدس) ومقابله الأجنبي (L'acte illocutoire) وترجم له بفعل الإنجاز، ويبقى المستوى الثالث الخاص بالفعل التكميلي، والمتمثل في الأثر السمعي المتحقق وترجم له بفعل التكليم، ومقابله الأجنبي (L'acte perlocutoire)¹⁰ ذلك لأن وظيفة التداولية¹¹ تتمثل في دراسة جوانب المعنى، وجوانب السياق (aspects of context) وتكون جزءا من قدرة المستعمل، كما تبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم (speaker intention) أو دراسة معنى المتكلم (speaker meaning) فقول القائل مثلا: (أنا عطشان) قد يعني أحضر لي كوبا من الماء، وليس من اللازم أن يكون إخبارا بالعطش؛ فالتكلم كثيرا ما يعني أكثر مما تقوله كلماته.

وميز في هذا المقام أستين بين نوعين من الأفعال: أفعال إخبارية (constative) تخبر عن وقائع العالم الخارجي وتكون إما صادقة أو كاذبة، وأفعال أدائية (performative) وهي ما تنجز في ظروف ملائمة¹² وقدم أمثلة وشروط لكل نوع، كما قسم الأفعال الأدائية إلى: أفعال أدائية صريحة، وأدائيات أولية. ورغم أنه اجتهد كثيرا في وضع هذه التقسيمات إلا أنه أعاد النظر في ذلك كله؛ حيث تبين له أن الحدود بين هذين النوعين من الأفعال غير واضحة وبينها لبس، ووجد بأن هناك جملة من الشروط التي وضعها للأفعال الأدائية قد تنطبق على غيرها والعكس؛ فأعاد طرح السؤال الذي بدأ به: (كيف ننجز فعلا حين نطق قولاً؟) فوجد أن الفعل الكلامي يتركب من ثلاثة أفعال، تؤدي في الوقت نفسه الذي ينطق فيه بالفعل الكلامي، وهي ليست أفعالا ثلاثة يستطيع المتكلم أن يؤديها واحدا بعد الآخر؛ بل هي جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد، ولا يفصل أحدها عن الآخر إلا إذا كان لغرض الدراسة، وهذه الأفعال هي¹³:

1- الفعل اللفظي (locutionary act): ويتكوّن من النطق بأصوات لغوية ينظمها تركيب نحوي صحيح ينتج عنه معنى محدد هو المعنى الحرفي أو الأصلي المفهوم من التركيب، وله مرجع يحيل إليه.

2- الفعل الغرضي أو الإنجازي (illocutionary act): ويقصد به ما يؤديه الفعل اللفظي من وظيفة في الاستعمال كالوعد، والتحذير، والأمر والنصح، وغيرها.

3- الفعل التأثيري (perlocutionary act): ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في

السامع أو المخاطب، سواء أكان تأثيرياً جسدياً أم فكرياً أم شعورياً.

نمثل هذه الأنواع من الأفعال، إذا دخل عليك شخص وقال لك: (خلف هذا الباب أفعى)

فالفعل اللفظي هو الهيئة التركيبية لهذه الجملة بأصواتها التي نطقت، وبتركيبها النحوي الصحيح،

وبمعناها الحرفي الذي قرر أن خلف الباب أفعى، ومرجعه وجود أفعى فعلاً خلف الباب، والفعل

الإنجازي هو ما يقصده المتكلم بهذا القول، وهو التحذير من الأفعى، والفعل التأثيري هو ما يخلقه

هذا القول من أثر فيك، قد يكون الفرع، أو الهرب من المكان، أو النهوض لقتلها.

ومنه فإن الظروف النحوية وما تركب منها تركيباً إضافياً وغير إضافي، ينبغي أن يراعى في

اللغة المكتوبة أو الشفوية، إضافة إلى أدوات الربط وتأثيرها في دلالة التراكيب، مع مراعاة مقتضى

المقام، وتوظيف قرائن تؤثر على المستقبل وتقنعه من خلال طبيعة ونوع الحجج المعتمدة؛ لأن

الحجاج هو مجال من مجالات التداولية، ويشترك مع العديد من العلوم الأخرى ضمن الحقل

التداولي؛ مع أنه انبثق من حقل المنطق والبلاغة الفلسفية.

ويرتبط مفهوم الحجاج بالفعل؛ لأنه بحث من أجل ترجيح خيار من بين الخيارات القائمة

والممكنة، بهدف دفع فاعلين معينين في مقام خاص إلى القيام بأعمال إزاء الوضع الذي كان قائماً،

يقوم في مفهومه على صناعة الجدل والخطاب؛ ففي الحجاج يلتقي البعد الذاتي بالموضوعي، كما أنه

مرتبه بسياقه الذي يتنزل فيه أو المرجعية التي ينتسب إليها¹⁴.

وقام أوستين في المحاضرة الأخيرة (الثانية عشرة) بتقديم تصنيف للأفعال الكلامية على أساس ما

أسماه (قوتها الإنجازية)¹⁵ فجعلها خمسة أصناف، مع أنه كان غير راض عن ذلك، وهي كالآتي:

1- أفعال الأحكام (verdictives): وهي التي تعبر عن حكم يصدره محلف، أو محكم، أو

حكم، وليس من الضروري أن تكون الأحكام نهائية أو نافذة، فقد تكون تقديرية أو ظنية، مثل:

يبرئ، يقدر، يعين، يقوم، يشخص مرضاً، يحلل.

2- أفعال القرارات (exercitives): التي تعبر عن اتخاذ قرار في صالح شيء أو شخص أو

ضده مثل: يأذن، يطرد، يحرم، يجند، يختار، يوصي، يحذر، يصرح ب، يحدث، يعتذر، ينصح،

- 3- أفعال التّعهد (commissives): وهي التي تعبّر عن تعهد المتكلّم بفعل شيء أو إلزام نفسه به مثل: أعد، أتعهد، أتعاقّد على، أضمن، أقسم على، أقبل،
- 4- أفعال السلوك (behabitives): وهي التي تعبّر عن ردّ فعل لسلوك الآخرين، ومواقفهم ومصائرهم كالاعتذار، والشكر، والتعاطف، والفقد، والمواساة، والتّحية، والرّجاء، والتّحدي،
- 5- أفعال الإيضاح (expositives): وهي الأفعال التي تستخدم لتوضيح وجهة النّظر أو بيان الرّأي وذكر الحجّة مثل: الإثبات، والإنكار، والمطابقة، والملاحظة، والتّنبؤ، والإجابة، والاعتراض، والاستفهام، والتّشكيك، والموافقة، والتّصويب. ومع هذا يسجّل لأوستين جهده في محاولة وضع نظريّة متكاملة للأفعال الكلاميّة، التي جاء سيرل ليطورها، وبخاصّة شروط الملاءمة أو الاستخدام التي إذا تحقّقت في الفعل الكلاميّ أصبحت موقفاً، فجعلها أربعة شروط، وطبقها تطبيقاً موجزاً ومحكماً على أنماط من الأفعال الإنجازيّة، فطبقها على أفعال الرّجاء، والإخبار، والاستفهام، والشكر، والنّصح، والتّحذير، والتّحية، والتّهنئة، وبينّ الشروط التي يحتاجها بعضها، وما يستغنى عنه من شروط، منها ما طبّقها على فعل الرّجاء، وهي: شرط المحتوى، والشرط التّمهيدّي، وشرط الإخلاص، والشرط الأساسي¹⁶ كما قدّم الأبعاد التي يختلف بها كلّ فعل إنجازيّ عن الآخر.

وخلاصة ما سبق، أنّ اللّغة هي ممارسة أفعال، والفعل هو أحد أهمّ المفاهيم الأساسيّة التي تقوم عليها التّداوليّة في أبعادها الحجاجيّة، التي تهدف إلى تحقيق أغراض إبلاغيّة وإقناعيّة ومقصديّة¹⁷ معيّنة، وتقابلها المقبوليّة؛ بحيث تتحقّق القصديّة لدى المنتج والمتكلّم، والمقبوليّة تتحقّق لدى السّامع المتلقّي، الذي تكون لديه رغبة في معرفة وصياغة المفاهيم التي يتلقّاها؛ فاللّغة من هذا المنطلق، هي القيام بأفعال قصد التأثير، ممّا يتطلّب فهمها وتحليلها.

مراجع البحث وإحالاته

- 1- ينظر، التّداوليّة والحجاج مداخل، وتصورات، صابر الحباشة، ص 15. وينظر، العقل واللّغة والمجتمع، الفلسفة في العالم الواقعيّ، تر، سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف، ط 1، 2006م، ص 20، وما بعدها.

- 2- ينظر، عندما نتواصل نغير مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، أفريقيا الشرق، المغرب، 2012، ص 88-89.
- 3- ينظر، عندما نتواصل نغير مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، ص 88.
- 4- نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، جون لانجشو أوستين، تر، عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، ط 2، 2008م، ص 6 وما بعدها بتصرف واختصار.
- 5- المقاربة التداولية، ارمنكو فرانسوا، تر، سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، 1986، 75.
- 6- ينظر، عندما نتواصل نغير، ص 65.
- 7- ينظر تفصيل ذلك في اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء، 1998، ص 237.
- 8- طه عبد الرحمن، الميزان والتكوثر العقلي، ص 253.
- 9- ينظر: نفسه، ص 261 / 262.
- 10- طه عبد الرحمن، الميزان والتكوثر العقلي، ص 260.
- 11- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط 1، 2011م، ص 12.
- 12- نفسه، 64.
- 13- ينظر: نفسه، ص 70 وما بعدها.
- 14- ينظر تفصيل ذلك في حجاج النص الشعري، محمد عبد الباسط عيد، ص 11، وما بعدها.
- 15- ينظر، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، جون لانجشو أوستين، تر، عبد القادر قنيني، ص 167، وما بعدها، Performativ-cosntative.Austin.J.L.In.Searle.J.R:ed.1971.p.150/154.
- 16- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، ص 77، وما بعدها.
- 17- ينظر حول المقصدية، الأفق التداولي، نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية، إدريس مقبول، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط 1، 2001م، ص 24، وينظر، علم لغة النص النظرية والتطبيق، عزة شبل محمد، مكتبة الآداب، القاهرة، ط 2، 2009م، ص 28، وما بعدها.